

الفصل الثالث

أشعاره

١ - الإلياذة

ذات يوم اختلفت هيرا (Hera) وأثينا (Athena) وافروديتا (Aphrodite) على تفاحة قدمتها لهن إريس (Iris) إلهة الخصام ، ولما اشتد بينهن الخلاف اتفقن على اختيار باريس بن برياموس حكما لفض النزاع بينهن وسألته أن يعطى التفاحة لأكثرهن جمالا وأشدهن فتنة . وأخذت كل منهن تستميله وتغريه فقالت له هيرا ، أنا سيدة الأولو، بوس صاحبة القوة والسلطان ، أنا أم آريس ، إله الحرب ، وهيفايستوس ، صانع الدروع ، فإذا شئت طلبت إليهما أن يحمياك وجعلتك ملك هذه الديار ، صاحب عرش عظيم وثروة طائلة . وسكتت هيرا ، ثم تحدثت أثينا ، ابنة زيوس العظيم ، ربة الحكمة والرشاد ، وقالت ، سأمنحك السداد واجعلك أحكم الخلق أجمعين . وتقدمت افروديتا بابتسامتها الساحرة التي لا تفارق فيها الحلو الرقيق وقالت ، أولست أنا ربة الجمال ؟ أولا تريد يا باريس أن أهيك هيلينا (Helene) أجمل زوجة في العالم تسحرك بحسن إلهي وتغمرك بجمال رباني ؟ . وقبل أن تنتهي من كلامها ألقي إليها التفاحة وبذلك أثار غضب هيرا وأثينا وكتب على نفسه البؤس والشقاء وجلب على أهله الخراب والدمار .

فبعد أن اصدر حكمه ارادت افروديتا أن تقي له بوعددها ، فأغرته
بالإبحار إلى مدينة اسرطه حيث تنتظره هلينا زوجة مينلاوس Menelaos
ملك البلاد، وأقلع باريس إلى هذه الديار ونزل ضيفاً على ملكها وقضى
في ضيافته أياماً جميلة تمتع فيها بنظرات كان يختلسها من حبيبته الموعودة
وابتسامات كانت تبادله إياها وتغريه على الاقتراب منها ليرشف الخمر التي
تندفق من عينها فيتشجع وينفذ خطته ، ولما اسكرت باريس نشوة الحب
واستسلم لإغراء افروديتا الساحرة فر مع هلينا إلى طرواده لينعم بحياة
سعيدة بعيدين عن اسرطه وملكها وذاعت أخبار الفضيحة وصمم مينلاوس
على الانتقام ، ودعا ملوك اليونان وأمراءها إلى الرحيل لتدمير طرواده
وسرعان ما عجت البلاد بالجند واضطربت البحار بالسفن وانفقت الحكمة
على أن يبحر زعماء هيلاس (Hellas) وأبطالها ليدمروا طرواده ويذيقوا
أهلها صنوف العذاب .

وانتظمت صنوف الجند ، وأعدت السفن وتأهب الحشد للرحيل تحت
إمرة اجامنون العظيم ، وترامت أخبار هذا الجيش الجرار إلى طرواده
فهب شعبها الباسل وأخذ يستعد لمواجهة العدو وامتلات المدينة بالجند
وتسابق الشبان والشيوخ في جمع الأسلحة ودقت الطبول ، ووصل الجيش
اليوناني وتأهب الطرواديون لحماية بلدهم والدفاع عنها ، و ضربوا حولها
حصاراً منيعاً والتحم الفريقان وتوالت المعارك وكانت خسائر الغالب
والمغلوب فادحة . وملاً الفرع صفوف اليونان والطرواديين وفاض الحزن
على هؤلاء وهؤلاء وجزعت النفوس لرؤية الدماء المنسالة والرموس المتناثرة
وطال الحصار واستمر عشر سنوات مليئة بالأهوال والخطوب .

لكن هوميروس لم يشأ أن يصف لنا هذه الأعوام وما جرى فيها

واكتفى بأن يتغنى بأحداث الشهرين الأخيرين ، فنظم الإلياذة : ملحمة الخلود وقصيدة الزمان ، وتتكون من خمسة عشر ألفاً وخمسة وستة وثلاثين بيتاً قسمها علماء الإسكندرية إلى أربع وعشرين أنشودة ، بدأها هوميروس بالدعاء لربات الشعر والتوسل بهن ليأمنه الشدو والغناء ثم أخذ في سرد قصته وقال ...

في يوم من الأيام هاجم اليونان إحدى القرى وسبوا نساءها وكانت من بينهن خروسيس الفاتنة ، ابنة كاهن اپوللون ، فأعجب بها اجامنون وأخذها من بصرية ، فحزن أبوها حزناً شديداً وفكر في أن يذهب إلى ملك الملوك ليفتديها ، ولما بلغ معسكر اليونان تقدم من اجامنون خائفاً محزوناً وتوسل به قائلاً : « مولاي ! جنتك راجيا أن ترد على ابنتي ، مليكي ! انى أدعو لك بالنصر وأصلى من أجلك وأقدم لك ما أملاك فداء لفنانة كيدي فارحمي وردها إلى » ، لكن اجامنون نهره وردة خائب الرجاء فعاد إلى قرية يسكب الدمع مدراراً ويكي ابنته ويدعو اپوللون أن ينتقم له من هذا العاقب المنجبر واستجاب الرب لدعائه ، فأمطر اليونان وابلا من غضبه وأنزل عليهم طاعونا يحتاج جنودهم وخيلهم واستمر الوباء تسعة أيام عاصفة تذر بالفناء ، فاضطر اخيلوس إلى دعوة مجلس الجيش ، فأجمع القادة على أن يذهب كالتحاس ويسأل الأرباب لتكشف له أسباب هذه الغمة ، وعاد الكاهن وقال : « الويل لنا ان لم نرد خروسيس لأبيها ، إن الآلهة تأمر بإرسالها فوراً ارضاء لاپوللون فيجب علينا أن نبتهل إليه ونسترضيه ليرفع مقتته وغضبه عنا ، وعندئذ انتفض اخيلوس وأرسل كلمة الحق مدوية وأصر على إرجاع الفتاة لأبيها وتقديم القرابين لاپوللون ، فثار اجامنون في وجه البطل العظيم ونشبت بينهما معركة كلامية وهم اخيلوس بأن يغمد سيفه في صدر

اجائمنون الذى وافق على رد خروسيوس إذا تنازل له اخيليوس عن فتاته برسيس ، وعندئذ هبطت أثينا من السماء وتجلت لبطل اليونان ونصحته بأن يتخلى عن حبيته لذلك القائد الأناى الجشع ، فاستجاب اخيليوس لنصيحة الإلاهة وأقسم فى نفس الوقت بأنه لن يشترك فى الحرب ولن يسمح لجنوده البواسل بخوض معاركها ، وجلس اخيليوس فى خيمته حزينا كثيراً ونادى أمه ثيتس (Thetis) لتأتى وتسمع شكواه فأسرعت إليه وحدثها عن الإهانة التى لحقت به ، ثم خفت لمقابلة زيوس وأبلغته الخبر فوعدها رب السموات والأرض بأنه سيديق اجائمنون وجنوده عذاباً أليماً تكفيراً عما أصاب ولدها من شرواذى .

ويحدثنا الشاعر فى الأنشودة الثانية بأن كبير الآلهة أرسل إلى اجائمنون ، وهو يغط فى نومه إله الأحلام ليحضه على مهاجمة طرواده فوراً ويبدشه بالنصر المبين ، فلما استيقظ ابن أتريوس تحدث إلى القادة وأخبرهم برؤياه الكاذبة فصدقوها ، ثم وقف فيهم نستور خطيباً وقال : هلموا يا إخوان ، أجمعوا الجند واملئوهم حماسة واشحنوا عزائمهم واستعدوا التدمير طرواده ، ولكن اجائمنون أراد أن يعرف ، قبل بدء المعركة ، رأى جنوده ، فنهض فرق هضبة وهتف فيهم قائلاً : هلموا فاعمدوا سيوفكم ، لقد طالت بنا الحرب وذهبت بأعز المهج وأغلى الضحايا ، فلنعقد مع الطرواديين هدنة . أية حرب هذه التى نخوضها من أجل امرأة خائنة لا عرض لها ولا شرف !! فلتنته هذه الحرب ولنعد إلى ديارنا ، ولما انتهى من إلقاء كلمته طار الجنود فرحاً وعلا هتافهم يعلنون تأييدهم ويؤكدون رغبتهم فى الرحيل بعد الغياب الذى إنك قواهم وافى شباهم .

ولكن كيف تقف المعارك والآلة لا تريد ذلك ؟ فسرعان ما هبطت أئينا من السماء وتجلت أمام أودوسيوس وقالت له : « إياك أن تنخدع بكلام اجاعمنون ، انه يريد أن يسبر عزائمكم ، فميا ياشجاع وانفخ من روحك في قلوب الجنود ورددتم إلى صوابهم واقنعهم بالبقاء ، ، وعندئذ انطلق ملك ايثاكا بين القادة والجنود وأفهمهم الحيلة التي لجأ اليها ابن اتريوس وحضهم على القتال وحثهم على التضحية وذكرهم بمجد الوطن ، ونجح أودوسيوس في تحقيق رغبة ائينا ، فاستمرت الحرب .

ولكن القتال لا يبدأ في الحال بل نرى باريس في الأنشودة الثالثة يتحدى اليونان فيقبل منيلاوس تحديه ويتفق الفريقان على شروط يتعهدان بتنفيذها بعد المباراة ، وتقضى باسترداد هيلينا وأخذ تعويض إذا انتصر ملك اسپرطه أو عودة الأغر يق إلى بلادهم إذا فاز أمير طرواده . وبينما تدور المفاوضات بين الفريقين بخصوص هذه الاتفاقية ، تصعد هيلينا في الأنشودة الرابعة فوق أسوار طروادة حيث يستقبلها برياموس وشيوخ المدينة ، فتقف بينهم وتحديثهم عن زعماء اليونان الذين تستطيع التعرف عليهم من فوق السور ، ثم تبدأ المباراة ويتذكر منيلاوس أن هذا الغادر قد اعتدى على عرضه ، فتنابه ثورة جنونية وتتقد عيناه ويتدفق الدم في وجهه وينقض على باريس ويكاد يفتك به لولا أن افروديتا نشرت حوله سحابة بيضاء احاطت به وأخفته عن منيلاوس الذي طفق يبحث عنه في كل مكان ولكن دون جدوى ، لقد رفعته افروديتا إلى عل وذهبت به إلى حبيبته هيلينا .

وهنا ينقلنا الشاعر فجأة إلى ذرى الأولومپوس حيث نرى هيرا وأئينا تعملان على خرق الهدنة وبدء القتال من جديد ، وانفقت الإلهتان على ان تذهب

أثينا وترسل سهمها نافذاً في جسم منيلاوس وهو يبحث عن باريس وكان هذا السهم كافياً لاشعال نار الحرب التي يطيل هوميروس في وصفها ويتغنى بأحداثها في الجزء الأخير من الأناشود الرابعة والأناشيد الخامسة والسادسة والسابعة والثامنة « وكيف لايسهب في وصفها وقد اشترك فيها الآلهة وانقسموا إلى فريقين ؟ فإبوللون وأريس يمضران اليونان وأبلا من السهام ويوقعان الرعب في قلوبهم ، وزيوس يرسل عليهم الصواعق ، اما هيرا وأثينا فقد حزتا لهذا الموقف وأخذتا تفكران في أمر اليونان فاتفقتا على استدعاء بوسيدون الجبار لينقذهم من هلاك محقق ، ثم ذهبت هيرا إلى زوجها وأسكرته بقبلاتها ثم سلطت عليه إله النور فأغرقه في سبات عميق ، وكف زيوس عن إرسال صواعقه على الاغريق ، وبذا نجحت الرتيبان وانقذتا جموع اليونان فتعادلت الكفتان بعد أن كانت كفة الطرواديين هي الراجحة ، وثاب اليونان إلى رشدهم وأدركوا أنه لو كان أخيليوس بينهم لما غلبوا على أمرهم . ولذا أوصى نستور بمصالحة البطل وطلب إلى أجامنون استرضائه ، واستجاب القائد العام لطلبه وأرسله مع أودوسيوس وأچاكس وفوينكس إلى خيمة أخيليوس ليعرضوا عليه صلحا كريما ويسألوه الصفح والغفران ، ولكنه يشور لكرامته ويرفض اعتذارهم ويردهم خائبين ، بعدئذ يعود الشاعر مرة أخرى إلى ساحة الوغى ليصف لنا في الأناشيد الستة التالية معارك عنيفة ومذابح مخيفة .

لقد تأهب الفريقان وبدا لهما أن يخوضا المعركة الفاصلة في هذه الحرب الضروس ، فاشترك فيها أجامنون العظيم وأچاكس المرعب وأودوسيوس الشجاع وديوميديس الباسل . واشترك فيها هكتور أسد طرواده المحصور الذي كان ينزل الساحة بزئيره ويملا الجند قوة وحماسة فيسرعون إلى أسلحتهم

ودر وعهم ويقتلون الأغر يق بالعثرات والمئات ، ويحززون نصرا خاطفاً ويختالون حين يشاهدون قادة اليونان يحملون إلى سفنهم بعد أن أصيبوا باصابات قاتلة بالغة ، يرى باتروكلوس هذه المناظر المؤلمة ويحزن حزناً اليماً ويحاول اقناع صديقه أخيلئوس بأن يغفر لأجائمنون اساءته وينهض ليدفع عن اليونان البلاء الذى نزل بهم ، ولكن أخيلئوس لا يستجيب لنداء صديقه فيكتنى بأن يسمح له بأخذ ما يريد من قوة وعتاد، فيذهب باتروكلوس فى الأنشودة السادسة عشرة لتخليص الأغر يق من الموت الذى يلاحقهم ، ونفخ فى البوق وأنقض باتروكلوس بجنده على الأعداء وكانت خوذة أخيلئوس التى لبسها تكنى وحدها لإلقاء الرعب فى قلوب الطرواديين وتدفعهم إلى الفرار ، فاضطرب نظامهم وسقط منهم عدد غفير ، عندئذ اختال باتروكلوس بانتصاره وأصر على ملاقاته هكتور فسعى إليه ، ولم يترك كل منهما فرصة تمضى إلا وحاول الفتك بغيره ، ثم أرسل هكتور ربحا قاتلا إلى رأس باتروكلوس فسقط المسكين مدرجا بدمه وقبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة تنبأ بقتل هكتور وقال له « سوف تشرب الكأس التى شربت ، انتظر فسيأتك عذاب أليم والويل لك من أخيلئوس ، فعندما يسمع بموتى سيسرع إلى هذه الساحة ولن يتركها قبل أن يصرعك ،

وسمع أخيلئوس بالخبر وحزن له حزناً بالغاً وأخذ يرسل صرخات مدويه كانت تزلزل قلوب الطرواديين وتملؤهم ذعراً ، وطفق بجوب الساحة بحثاً عن جثة حبيه ، فلما وقع عليها بصره بكى ماشاءه البكاء ، ثم رثى صديقه بكلمة مؤثرة وأمر بغسل الجثة ولفها فى الأكفان ، ثم نسي غضبه وسعى إلى أجائمنون فرحب به واعتذر له ورد إليه الفتاة التى كانت سبب الخصام ، وقدم له الهدايا النفيسه رمزاً لنقاء القلب وصفاء

النفس ، نسي اخيليوس كل شيء وأصبح لا يفكر إلا في الانتقام لصاحبه ، ويصف لنا الشاعر في الأناشيد الباقية كيف انتفض اخيليوس وانقض يشفي غيظه بقتل عشرات وعشرات من ابطال طرواده ، وكيف كان يجوب الساحة يطعن ويحندل ويضرب ويقتل ، وكيف ابتلعه اليم فكاد يغرق ولم ينقذه من الموت إلا ارباب الأولومپوس ، وكيف استخف بالأهوال والأخطار واقسم ان يفجع طروادة في هكتور ، بطلها المغوار ، فانطلق في ساحة القتال يبحث عنه حتى التقى به ، وما أن رآه ابن پرياموس حتى زاغ بصره واضطربت مفاصلة وهزته قشعريرة عصفت بينياه الضخم ، وحاول ان يلهب جياده لتفر من وجه اخيليوس ولكن إلى اين ؟ لقد انطلق ابن پليوس يضارده اينما ولى وجهه ، ولما تعب هكتور ونال منه الجهد وقف اللقاء اخيليوس . وكانت لحظة رهيبه انفطرت لها القلوب وارتجف لها الآلهه والبشر . لقد انقلب بطل هيلاس إلى ثائر ملاءه الغيظ واستولت عليه رغبة مستبدة في الانتقام ، أما هكتور فلم يكن مخيراً بين الصمود وبين الهرب ، فصيرة أصبحت معلقا في كفة القدر . واخذ كل من البطلين يقذف رمحاً القائل فيرتد على درع خصمه ويهوى إلى الأرض فيسرع صاحبه لأخذه ويرسله من جديد . ولم تنقض لحظات قصيرة حتى انقض ابن پليوس على بطل طرواده وعاجله بطعنه في رمحهُ نفذت في عنقه وهوت به إلى الأرض ذبيحاميتا ، وربطه في مؤخر عربته وطفق يدور حول المدينة ينكل بجثته ويعفر جبينه بتراب الذل والاحتقار .

وبعد أن انتقم اخيليوس لصاحبه جمع القوم وأمرهم بأعداد كومة لحرقه وتأدية الشعائر الدينية التي يفرضها إله الآخرة على موتاه ، ولما انتهوا من تأدية الطقوس واقامه الألعاب التي كان لا يتم الجناز الا بها ، عاد اخيليوس

إلى جثة هكتور وانقض عليها كالمجنون وربطها في عربته وأخذ يلف بها حول الكومة التي حرق فيها صاحبه فثار الآله لما يحل بالميت المسكين من هوان ، وغضب زيوس ، فأرسل إلى اخيليوس بأمره بتسليم الجثة إلى پرياموس ، واوحى إلى الشيخ المسكوم بالذهاب إلى معسكر اليونان لأخذ جثة ابنه العزيز ، واستجاب اخيليوس لرغبة زيوس واطاع پرياموس أمره ، فسعى إلى خيمة البطل ودخلها وهو يبكي وينتحب فرحب به اخيليوس وهون عليه ثم أمر بغسل هكتور ولفه في اكفان من كتان مصر وتسليمه إلى ابيه ثم يعود پرياموس إلى طرواده ويأمر بعمل كومة لحرق الجثة ويقم الطقوس الدينية وسط نحيب الطرواديات وعويلهن وتنتهى الإلياذة بوصف بليخ لهذا المنظر الحزين

٢ - الأوديسا

قسمها علماء الاسكندريه ، مثل الإلياذه ، إلى اربع وعشرين انشوده تدور حول ثلاثة موضوعات رئيسيه :

أعمال تليهاخوس ، وتتضمن الأناشيد الأربعة الأولى وسميت باسمه لانه يقوم فيها بالدور الرئيسي ، مغامرات اودوسيوس ، ويصفها الشاعر في الأناشيد السبع التالية ، انتقام البطل ، ويملا الاغانى الباقية ، ويتكلم فيها هو ميروس عن عودة اودوسيوس إلى وطنه وتخلصه من اعدائه الادعياء ، الذين احتلوا قصره وارادوا ارغام زوجته على الزواج بواحد منهم .

ويبدأ هو ميروس الأوديسا ، كما بدأ الإلياذة ، بالابتهاال إلى ربات الشعر أن تلهمنه أجل الأناشيد وأعذب الأنغام ، ثم يصف لنا كيف ضل اودوسيوس طريقه في عرض البحار ، وكيف عاد أقرانه ، بعد حرب طرواده ، إلى اوطانهم إلا هو وجنوده فقد تعرضوا للبصائب والأهوال ، وكيف رقت قلوب الآلهة للبطل ومن معه ، وكيف أن اثينا رثت لحاله وتوسلت بأبيها زيوس أن يدركه برحمته ويرده آمناً إلى وطنه ، وكيف أن أباه استجاب لها وقضى بأن يعود اودوسيوس إلى ايثاكا ، مسقط رأسه ، بعدئذ ينقلنا الشاعر إلى هذه الجزيرة حيث نرى جماعة الأدياء وقد استولوا على قصره وأخذوا يبددون ثروته ويضايقون ابنه الصغير تليهاخوس وزوجته الوفية پنيلوبا (Penelope) التي حافظت على طهرها وأخلصها طوال هذه السنين (١) . ثم نرى اثينا تهبط من السماء وتأخذ صورة منتس ، أحد اصدقاء

(١) لقد سارت پنيلوبا رثاً لاوفاء عند اليونان لأنها انتظرت زوجها عشرين عاماً قضي منها عشرة في حصار طروادة ، وضرب في عرض البحر عصرة أخرى ، ومع ذلك فالأوديسا ، مثل الإلياذة ، لانصف إلا حوادث الشهرين الأخيرين فقط .

أودوسيوس وتدخل القصر وتقترب من تليماخوس وتنصحه بالذهاب إلى
بولوس واسبرطه ليعرف من نستور ومينلاوس أخبار أبيه .

وفي الأنشودة الثانية تعد له سفينة وتختار لها الملاحين وتزودها بالسلاح
وتبدو في صورة منتور وترافق تليماخوس في رحلته ، وأقلعت السفينة في
الأنشودة الثالثة واتجهت صوب بولوس ، ولما وصلتها ألقى مراسيها ، ونزل
تليماخوس ونزلت وراءه أثينا ، وتصادف أن أهل المدينة كانوا مجتمعين على
الشاطئ . حول ملكهم يقدمون القرابين لپوسيدون ، واقترب تليماخوس
وأثينا من القوم ، فرحب بهما نستور واستقبلها استقبالاً كريماً ، ثم طلب إليه
تليماخوس أن يحدثه عن أبيه ويذكر له بعض ما يعرفه عما ألم به أو يقص عليه
مأسى أن يكون قد سمعه ، ولكن الملك يروي له أخبار كثير من أبطال
اليونان الذين عادوا إلى بلادهم بعد حرب طرواده ويأسف لأنه لا يعرف
من أمر أبيه شيئاً وينصحه بأن يذهب من فورهِ إلى مينلاوس . ملك اسبرطه
لأنه كان قد لقي الأهل في البحر ولا ريب أنه سمع كثيراً من الأخبار
أثناء رحلته الشاقة فواصل تليماخوس رحلته إلى اسبرطه . وفي الأنشودة
الرابعة نراه في قصر مينلاوس الذي يرحب به ويكرم وفادته ، ويخبره ان
سفائن أبيه قد تحطمت وأنه حل ضيفاً على عروس الماء كالوپسو Kalupso
فهامت به وأبقته بجانبها وما زال أسيراً في جزيرتها لا تسمح له بالرحيل
وبعد أن يفكر تليماخوس في العودة إلى اثينا ، ولكن الشاعر ينقلنا إليها
فجأة قبل رجوع الفتى ليرينا العشاق يتآمرون عليه ويدبرون قتله ، وتعلم
پنيلوپا بمكيدتهم فتصلي من أجل ولدها وتتوسل بأثينا أن تصونه وأن تنتقم
من الأعداء الظالمين ، وعندما تنام الأم الحزينة تقبل عليها الآلهة تواسيها
وتطمئنها بهذه الكلمات الجميلة : لا عليك أيتها العزيزة ولا على ابنك ،

فالسما ترعاه وسيعود إليك عما قريب ، إنه لم يغضب الآلهة ولذا فهى تحميه وترعاه ، فقرى عينا واطمئنى عليه ، .

ثم يروى لنا الشاعر فى الأنشودة الخامسة كيف وقفت اثينا فى مجلس الآلهة تصف آلام أودوسيوس وتصور ألوان العذاب التى بذوقها فى جزيرة كالوپسو الموحشة ، فيعدها سيد الأرباب بأنه سيعود إلى بلده سالما آمنا وأنه سيبض بكمل أعدائه ، ثم يأمر زيوس ولده هرئيس بأن يتوجه فى الحال إلى هذه الحورية ويطلب إليها أن تطلق سراح أودوسيوس ليعود إلى وطنه ويستعيد سلطانه ويلقى أهله وخلاته . وتطبع الحورية أمر سيد الاولومپوس وتطلب إلى البطل أن يصنع لنفسه زورقا يحمله فوق العباب المتلاطم ثم تزوده بكل ما يكفيه من طعام وشراب . ولما أتم صنع زورقه أنزله إلى البحر وودع عروس الماء الحزينة وكان أودوسيوس سعيداً باسترداد حرته مبتهجا لقرب أوبته ، وظل الفلك يجرى به وكاد يبلغ جزيرة الفياكيس (Phaiakes) الذين أمرهم زيوس بأن يزودوه ، عند وصوله إليهم ، بسفينة وزاد وكل ما تشتهى نفسه . ولكن وأسفاه ! لقد لمح بوسيدون وهو يقترب من شاطئ جزيرةهم ، فأخذ يهرز أعماق البحر فهاج وتلاطم بأمواج كالطود ، حطمت الزورق وأخذت تقذف به فى كل صوب وظل البطل فى كفاح مستمر ونضال مرير يناضل الموت ويصرعه حتى وصل الشاطئ واستسلم لنوم هادى عميق .

وتظهر ناوسىكا (Nausikaa) ، ابنة ملك الفياكيس ، فى الإنشودة السادسة وتذهب مع وصيفاتها إلى الشاطئ حيث أخذن يلعبن ويمرحن ويضحكن ضحكات مدوية أيقظت أودوسيوس ، فهب مذعوراً واتجه نحو المذارى . فما أن رأينه حتى ولين خائفات إلاناوسىكا فقد وقفت تنتظر قدومه ،

فاقترب منها وطلب إليها ثوبا يرتديه وسألها أن تدله على المدينة ، ففعلت ، وأرشدته إلى قصر أبيها ، فتوجه إليه البطل في الإنشودة السابعة ودخله ووجد به زعماء المدينة وشيوخها يأكلون ويشربون في وليمة دعاهم إليها الملك ، وتقدم أوديسيوس بهدوء حتى اقترب من الملك والملكة وحياهما ، فأذنا له بالجلوس وأكرما وفادته ؛ وبعد أن أكل أودوسيوس وارتوى طلب إلى الملك أن يساعده على العودة إلى وطنه ، فوعد الملك بأن يكون له ذلك في اليوم التالي ؛ ودعاه أن ينام الليلة في ضيافته ليستريح بعد كل ما احتمل من عناء وتعب ، ولما استيقظ بطل اثنا كآ ، اصطحبه الملك إلى الشاطئ وأمر بأن تعد له أحسن السفن وأن تختار له نخبة من أصلب الفتيان عوداً وأشدهم مراسا ليصحبوه حتى يعود إلى بلده سالماً ، ثم دعا الملك شعبه إلى وليمة أقامها إكراما لضيفه وحفلاً رباعياً تخللته الأغاني الرخيمة والرقصات البديعة التي يصفها لنا الشاعر في الإنشودة الثامنة ، وبعد أن فرغ القوم من هوم ، سأل الملك ضيفه عن اسمه وطلب إليه أن يحدثه عن بلده ويصف له الأخطار التي تعرض لها ، فيخبره أودوسيوس بما يرد ويقتص عليه أبناء رحلته منذ أن ترك طرواده بعد سقوطها حتى وصل جزيرة الفياكس . ويروي لنا الشاعر في الأناشيد التالية (٩ - ١٢) الأحداث التي مرت بالبطل والأهوال التي قامها ، فيحدثنا عن مغامراته في أرض دأكة اللوتس^(١) ، ويصف لنا الأخطار التي أحاطت به في جزيرة الكوكلوپيس^(٢)

(١) كانت تنبت فيها زهرة اللوتس التي أكل منها بعض أصحاب أودوسيوس فنسوا كل شيء ورفضوا أن يبحروا مع بقية زملائهم .

(٢) "Kuklopes" وهم جماعة من المردة العتاة يعيشون على سفك الدماء ويشتملون بالرعى ، وكان زعيمهم يدعى بولوفموس ، أشبع نهمه من لحم رفاق أودوسيوس وكاد يلهم البطل نفسه لولا حيلة بارعة أتقنته من برائن الموت .

وجزيره الساحرة كركا^(٢) (Circe) ، ثم يصف لنا رحلة أودوسيوس إلى العالم الآخر ، قام بها ليسأل شبح العراف تيرسياس (Teiresias) عن الصعوبات التي ستصادفه والمصائب التي ستلم به قبل عودته ، وبعد أن يعرض هو وميروس تفاصيل هذه المغامرات في صورة قصة يرويها البطل على مسامع الملك وشعبه ، يصور لنا اقلاع السفينة ورحيل أودوسيوس من الجزيرة وعودته إلى وطنه .

بعد ذلك يصف لنا الشاعر مراحل الصراع بين البطل وأعدائه ويشرح لنا كيف تم له النصر بمعاونة ائينا (١٣ - ٢٤) التي تجلت له عند وصوله في صورة غادة حسناء ونصحته أن يصبر ويتحمل ما يصيبه من مكروه ثم غيرت صورته ودثرته بثياب بالية مهلهلة لكيلا يعرفه أحد ، وأخبرته أن يذهب إلى يومايوس ، راعيه الأمين ، ليقف منه على أخبار أهله وبيته ويقوم عنده حتى تعود إليه الإلهة بأبنة تليماخوس ، وتوجه أودوسيوس ، وهناك كشف له أبوه عن شخصيته وروى له قصته ، وأخبره أنه تنكر في هذه الأسماح حتى يستعين على أمره بالكتمان ، وطلب إليه ألا يخبر أحد بعودته وكلفه بالتوجه إلى القصر وانتظاره حتى يلحق به في صحبة الراعي الأمين ، فانصرف تليماخوس وذهب إلى أمه وأخبرها بأبناء رحلته التي كان قد قام بها ايعرف أخبار أبيه ، وأقبل الراعي ومعه أودوسيوس في صورة الشحاذ الفقير ، وجلس على الأرض فأرسل إليه إبنة شيئا من اللحم والخبز ثم أشار إليه بالدخول فأخذ يسير بين الأمراء ويسألهم أن يتصدقوا

(١) حوات أتباع البطل إلى خنازير ، وسجرتة هو وقتنته وجعلته ينسى أهله ولا يفكر في العودة إلى بلده وظل على هذا الحال سنة كاملة حتى أفاق من سكرته واستأذن في الرحيل . ويروي لنا الشاعر قصصاً أخرى تصور الأحداث التي لقيها البطل مع الكيكونيس (Kikones) والكييريوي (Kimmerioi) ، وما عاناه لدى جنيات البحر الساحرة ، وما أحرق به من خطر عند مروره بين خاروبدس (Charubdis) وسكولا (Skulla) ، والأهوال التي آمرض لها في جزيرة ثيران هليوس ... الخ ... وتفويض كل هذه القصص بلوحات رائعة لمناظر فاتنة أو صور مخيفة أو مواقف مثيرة رسمها الشاعر بأسلوب متمم رشيق ...

عليه ، فرثى له كثيرون وناولوه قطعاً من اللحم ولقمت من الخبز ، وبعد ذلك خرج وجلس عند باب القصر حيث كان من قبل ، فر به شجاذ ضخم اقترب منه ونهره وأمره بالانصراف حتى لا يثير غضبه ، فرفض أودوسيوس طلبه ولم يكثر لتهديده وقبل تحديه ، واشتبك معه وطرحه على الأرض وانهاه عليه بضربات عنيفة اسكتته فهتف العشاق إعجاباً بقوة البطل .

عندئذ بدأ لينيلوبا أن تخطر بين العشاق ، فرآها أودوسيوس تتحدث اليهم عن سعادتها الماضية مع زوجها الحبيب وتتدب حظها لغيبابه الطويل وتحزن لرؤية هؤلاء الأعدياء الذين يعيشون ويعشون بثروته ، وأنبتهم لإقامتهم في القصر وطلبت اليهم أن يرحلوا عنه فانصرفوا ، ولكن سرعان ما عادوا اليها يحملون هدايا الزواج . هذا يقدم ثوبا جميلا موشى بالذهب ، وذاك يعطيها عقداً من الكهرمان ، وآخر يغريها بأساور وأقراط ، فحملت الوصيفات هذه الهدايا وعادت لينيلوبا إلى غرفتها وتركتهم يلهون ويغنون كعادتهم ، وأقبل الليل وأخذ العشاق يضحكون ويسخرون من أودوسيوس ولكنه رد على أهانتهم بمثلها فودوا أن يضربوه ويطرده لولا أن منعهم تليماخوس وأمرهم بأن يتركوه لأنه أواه في قصره ، وطلب اليهم أن يذهبوا من فورهم إلى دورهم فأطاعوه وانصرفوا إلى منازلهم . وهكذا خلا الجو للبطل وولده ، فأمره بإخفاء أسلحة العشاق وقال : « إن سألك عنها فاخبرهم أنك تحفظها لهم حتى لا يفسدها الغبار أو تؤثر عليها تقلبات الجو ، ولما انتهى من حمل الدروع والرماح ، ذهب الابن إلى فراشه وبقي الأب ليتسامر مع الخدم ، واقبلت لينيلوبا مع وصيفاتها حيث جلس أودوسيوس وأخذت تحذره عن هومها ومضايقات الأعدياء لها والحيلة (١) التي ابتكرتها لتخلص

(١) أخبرت الأعدياء بأنها مستعدة للزواج بواحد منهم بعد أن تنتهي من نسج كفن لوالد زوجها ، وعند ما بدأت في نسجه أخذت تنقض ليلاً ما تنسجه نهائياً وظلت على ذلك ثلاثة أعوام حتى وشت بها خادمت القصر .

منهم وقصت عليه كيف وشت بها الخادمت لدى العشاق وفضحوا أمرها فلم يعد لها عذر للماطلة وأصبحت مضطرة إلى الزواج بواحد منهم ، ثم حدثها أودوسيوس عن نفسه ولفق لها قصة طويلة محزنة . فذكر لها أنه من كريت وأنه عرف زوجها عندما ألقت به الرياح إلى هذه الجزيرة وأكد أنه ما زال حيا يرزق وأنه سيكون إلى جانبها بعد أيام واقسم لها بأغلاظ الأيمان أنه واثق مما يقول ، وطربت پنيلوبا لسماع هذا الخبر وامرت خادمتها الوفية يوروكليا (Eurukleia) أن تسهر على هذا الضيف وأن تقدم له ثيابا تليق بشخصه الكريم ، فلما خلعت إليه الخادمة واستمعت إلى صوته وتأملت صورته ورأت أثر الجراح القديمة التي كانت في رجله عرفت أنه سيدها ووجرت نحو پنيلوبا لتزف إليها الخبر السعيد ، ولكنه منعها وأمرها بالصمت وأفهمها أن كلمة واحدة منها تقضى عليه ، فأكدت له إخلاصها ووعدته بأنها لن تذيع من سره شيئا وتركته يأوى إلى فراشه ولكنه لم يزم وأخذ يفكر فيما عسى أن يأتيه به الغد من أحداث ، وعندئذ تجملت له أثينا فطأته واكدت له أنه سينتصر على خصومه ، وفي الصباح توسل البطل إلى زيوس ليرسل إليه آية تدل على أنه يرعاه فاستجاب لندائه . وسرعان ما قصف الرعد واكفهرت السماء وعصف الريح ووقف العراف ثيوكلومينوس (Theoklumenos) وسط العشاق بينما كانوا يجلسون إلى موائد الافطار في القصر وانذرهم بسوء العاقبة وتنبأ لهم بهلاك عاجل .

وبعدئذ أحضرت پنيلوبا قوس أودوسيوس الهائلة وقدمتها إلى الأدعياء وقالت أيهم يرمى بها سهما سيكون زوجها لها ، فوافقوا على هذا الشرط وأخذوا يجربون حظهم ولكن عبثا ضاعت محاولاتهم وفشلوا في رمي السهم ، وطلب الشحاذ أن يسمحوا له بشد الوتر فتاروا ضده ونبذوا

الفكرة ، ولكن بنيلوبا أجابته إلى طلبه رغم احتجاجهم ، وعندئذ تقدم
بومايوس ووضع القوس بين يدي سيده ثم أغلق أبواب القصر ، وتناول
أودوسيوس القوس وشد الوتر بسهولة ووضع فيها سهماً رماء وأصاب
الهدف الذي كان الأدعياء قد تراهنوا على إصابته ، فضاقت العشاق بهذه
النتيجة وامتقع لونهم ، وكانهم شعروا بأن نهايتهم قد أتت ، وسرعان
ما خلع أودوسيوس ملابسه ، وكشف عن شخصيته وأخذ يسدد سهامه إلى
صدور خصومه الذين لم يستطيعوا مقاومته ، فسقطوا جميعاً وقضوا نحسهم .
ولما تخلص منهم أمر بشنق الخادومات الخائئات وتطهير القصر تطهيراً شاملاً .
بعد ذلك ينقلنا الشاعر إلى حجرة بنيلوبا التي كانت تغط في نوم عميق
ألقت عليها أثينا حتى لا تشعر بشيء مما يدور حولها ، فأيقظتها وأخبرتها بكل
ما حدث ، وأرادت أن تختبر الغريب بنفسها حتى تتأكد أنه زوجها وهنا
يرسم لنا هوميروس لوحة مؤثرة تصف لنا تعارف الزوجين ولقاءهما بعد
الغياب الطويل وتصور لنا مرارة الفراق وما يحدثه في القلب من لوعة وحرقة .
ثم ينتقل بنا الشاعر إلى العالم الآخر ليرينا شبح أخيليوس واجامنون
يصفان موتهما ، وأثناء ذلك تقترب منهما أشباح الأدعياء ثم يأخذ أحدهم
في وصف مأساتهم من أولها إلى آخرها ، ولما ينتهي من روايته يعود بنا الشاعر
إلى عالم الأحياء وينقلنا إلى منزل لا أرتيس ، فنرى منظرًا مؤثرًا يصف لقاء
الإبن لأبيه ويصور الحب الأبوي والسرور العظيم الذي غمرهما ، وبينما
ينعم أودوسيوس بهذه اللحظات الجميلة مع والده ، يبلغه أن أقارب العشاق
قد تجمعوا وصمموا على الانتقام ، فيسرع إلى لقاءهم وتقف إلى جانبه اثينا
ويساعده ابنه وخدمه الأوفياء ، وتخدم المعركة ويهزم الأعداء ثم يأمر
زيوس ابنته اثينا بأن تعقد الصلح بين الفريقين فتنتهي الأوديسا بنشر
السلام وبث الطمأنينة في قلوب أهل اثينا كاجمعين .

٣ - نقد وتعليق

لم يبالغ افلاطون عندما قال ، ان هوميروس هو معلم اليونان ، لأن كثيراً من أدبائهم استلهموا من أشعاره جانباً عظيماً من إنتاجهم ، فالإلياذة والأوديسا هما المصدر الذي لا غناء عنه لدراسة الحياة اليونانية بمظاهرها المختلفة ، يرجع إليهما علماء الأديان والآثار والاجتماع واللغة ، يتلونها مرة بعد أخرى ، ويستمدون منهما كل ما يريدون من معلومات ، ويجمع هؤلاء العلماء على أنهم لا يضيقون بهوميروس مطلقاً ، وانهم إذا تركوه فترة أحسوا شوقاً عجيبيماً إلى شعره يجذبهم ويلح عليهم ، فيعودون إليه ويشعرون أن وصفه ما زال ساحراً وان لوحاته ما زالت رائعة .

وكيف لا يكون هوميروس ساحراً رائعاً ؟ ان الإلياذة والأوديسا تفيضان بألوان من التنوع : تنوع في المناظر وتنوع في الوصف ، تنوع في العواطف وتنوع في الأسلوب ، وتتصفان رغم طولهما الشديد ، بتناسك الأجزاء وتسلسل الحوادث ، مما يدل على وحدة الموضوع في ذهن الشاعر ووضوح الفكرة التي لا يشوبها غموض ولا اضطراب .

ولقد طبع هوميروس أشعاره بطابع من العظمة والفتخامة لأنه كان يضع نصب عينيه المثل الأعلى في كل ما يصف من مناظر وأشخاص ، وكل ما يصور من أحداث ومغامرات وكل ما يروي من قصص وأساطير ، ومع انه كان يرمى إلى بلوغ هذا المثل إلا انه كان لا يبعد عن دنيا الواقع ، فعاركه الدامية ليست معارك عمالقة أو شياطين ، وأبطاله ليسوا مردة خرافيين ، ولكنهم جنود بواسل وفرسان وشجعان لا يتكفون في مواقفهم

ولا يتصنعون في تصرفاتهم ، يشعرون بقوتهم ويعترفون بضعفهم الذى أحاطهم به ليجعلهم فى مستوى الناس أجمعين ، ويرفعهم أحيانا إلى أعلى السمو وينزل بهم أحيانا إلى أسفل سافلين ؛ فأجامنون ، ملك الملوك ، و « راعى الشعوب » ، و « سيد اليونان » ، يخضع لشهوة الجسد خضوعاً مزرى لا يليق به ولا يتفق مع بطولته ؛ واخيلوس ، بطل هيلاس ، أنانى إلى حد بغيض ، لا يتحرك لموت مئات من مواطنيه لأن اجامنون اعتدى على كرامته وسلبه حبيبته فيركب رأسه ويبالغ فى إهاتته وينسى مصلحة قومه ؛ وأودوسيوس الجبار يخاف العواصف فيبكي بكاء الأطفال ، وعندما تقذف به الأمواج إلى الشاطئ ، ويشعر بالنجاة يطير فرحاً ويقر بالآ ؛ وهكتور الذى كان يبعث الرعب فى نفوس اليونان ، إذا أخذ ابنه بين ذراعيه كان يضمه إلى صدره ويتسم له ويناجيه بأعذب الألفاظ التى ينطق بها أب رحيم .

ولقد خلع هو ميروس على الآلهة أنفسهم صفات البشر ، فمع انهم خالدون أبداً إلا انهم يشبهون الناس جميعاً ، يكثرون من الطعام ويسرفون فى الشراب ، قساة غلاظ القلب لا يحترمون المبادئ الخلقية ولا يتمسكون بالفضائل ، يسود بينهم الخصام وينقسمون إلى أحزاب ومعسكرات ، يتصفون بالمكر والخداع ، منهم القوي الذى يبطش والضعيف الذى يرتجف ، ومنهم الشجاع الباسل والجبان الرعديد ، لا يجلون زيوس ولكن يخافون بأسه ، لأنه إذا أمسك بطرف من سلسلة وأمسكوا بالطرف الآخر منها لشدهم إليه ينهائم لا يستطيعون أن يزحزحوه قيد أنملة .

لم يصور هو ميروس اذن الآلهة كما تصورهم أسلافه ، فلم يؤمن بما كان ينسج حوله من أساطير أو بما ينسب إليهم من معجزات أو بما يقام لهم من عبادات

لذا خلت أشعاره من النظريات الدينية والأفكار الفلسفية ، ولم تتضمن إلا بعض الخواطر الحزينة التي تعبر عن آلام الآلهة والبشر واستسلامهم أمام قوة القدر ، التي لا مرد لها ولا اعتراض عليها .

وعلى ذلك لم يخلق هو ميروس في دنيا الخيال بل عاش مع الناس وصور حياتهم وجعل الإنسان محوراً لأشعاره يقوم فيها بالدور الأول ، فيتصل بكل شيء ويتأثر به أو يؤثر فيه . فهو لا يصف الطبيعة مثلاً إلا إذا ذكر تأثير ظواهرها على اليوناني الذي يعيش في كنفها ؛ فالراعي يقضى وقته في تأمل السماء ونجومها اللامعة^(١) ، والفلاح يترقب هبوب ربيع الخريف الباردة^(٢) ، والمعاز يخاف سحب الشتاء المتراكمة^(٣) ، والملاح يلعن البحر الهادي ، والريح الساكنة لأن التجديف أنهكه والتعب أضناه^(٤) ، وقاطع الأخشاب يرتجف أمام شجرة البلوط التي اقتلعتها الصاعقة^(٥) .

وفي المعارك الدامية التي يخوضها الآلهة مع الأبطال لا ينسى الشاعر الرجل العادي ولا يهمله ، فيشاركه عواطفه ويرثي لضعفه ويثور معه ضد القوى الجبار ، فيبكي فرحاً مع أطفال شني أبوهم من مرض عضال^(٦) ، ويتهلل بشراً عندما يعانق الوالد ولده بعد غياب طويل^(٧) ، ويشارك الفلاح سروره عندما يرى أغصان الزيتون مزهرة^(٨) ، ويبارك البحار الذي نجما

(١) الإلياذة : ٨ : ٥٥٩ .

(٢) الإلياذة : ٢١ : ٣٤٦ — ٣٤٧ .

(٣) الإلياذة : ٣ : ٢٧٥ .

(٤) الإلياذة : ٧ : ٦٤ .

(٥) الإلياذة : ١٨ : ٤١٤ — ٤١٧ .

(٦) الأوديسا : ٥ : ٣٩٤ — ٣٩٧ .

(٧) الأوديسا : ١٦ : ١٧ — ١٩ .

(٨) الإلياذة : ١٧ : ٥٣ — ٥٥ .

بعد أن تحطم زورقه^(١)، ويتألم لجوع العامل الذي يكد طول النهار^(٢)،
ويشعر بتعب الملاح الذي انهكه التجديف^(٣) ويرثى لحال المرأة التي تكافح
لتكسب^(٤) قوتها، ويحزن لحزن الزوجة التي فقدت رجلها في المعركة^(٥)،
ويحزن مع الشيخ الذي مات أبناؤه في ساحة الوغى^(٦)، ويحسد الأغنياء
المترفين الذين يملكون مزارع القمح الواسعة وقطعان الماشية الكبيرة،
ويعجب من أصحاب الثروات الضخمة والضيعات الشاسعة، وينفر من
جشعهم وقسوتهم نحو العامل الفقير والأجير المعدم، ويشبههم بالحيتان
الضخمة التي تبتلع صغار الأسماك والنسور الجارحة التي تنقض على
مستضعف الطير^(٧)

وكيف لا يهتم هو ميروس بتصوير هذه الإحساسات ما دامت الدنيا قد
تغيرت، والاستبداد قد خفت وطأته، والإقطاع قد اختفت معالمه، فالفرد
العادي يملك مزرعة^(٨) (kléros) أو يؤجرها ويستغلها لحسابه الخاص،
والغنى لا يمتاز إلا باتساع ضيعته^(٩) (temnos) بعد أن كان يتمتع وحده

(١) الأوديسا : ٢٣ : ٢٣٣ - ٢٣٥ .

(٢) الإلياذة : ١٥ : ٦٢٤ - ٦٢٨ .

(٣) الإلياذة : ٧ : ٤ - ٦ .

(٤) الإلياذة : ١١ : ٨٦ - ٨٩ .

(٥) الأوديسا : ١٣ : ٣١ - ٣٤ .

(٦) الإلياذة : ١١ : ٦٧ - ٦٩ .

(٧) الإلياذة : ٨ : ٥٧٩ - ٥٨١ .

(٨) الإلياذة ، ١٥ : ٤٤٨ .

(٩) الإلياذة ، ٦ : ١٩٤ .

بحق المكية ^(١) ، والملك الجبار الذي كان يفتخر في الألياذة بأن الجميع يخافونه ويخضعون لسلطانه صار في الأوديسا ملكاً حكيماً يترث في تدبير أموره فيترصد لأعدائه ويتحين الفرص للتخلص منهم بدهائه وشجاعته .

ولقد امتازت أشعار هوميروس فوق ذلك بما تضمنته من معان خلقية سامية تتجلى في الحب الخالص والوفاء العظيم اللذين كانا يسودان في جو الأسمرة ^(٢) ، وتتجلى في استنكاره للعبودية واعتبارها أشنع مصيبة تحل بالإنسان لأنها تفقده نصف رجولته ، ^(٣) ، وتتجلى في حرية المرأة وسمو منزلتها وأهمية الدور الذي كانت تقوم به .

وكل هذه المعاني لا يعبر عنها إلا شاعر يعيش في مجتمع راق ، يصف أعمال الناس الذين يراهم ويصور عواطفهم ويتغلغل في اعماق نفوسهم .

حقاً إن هوميروس لم يستطع أن ينكر الماضي البعيد ويتحرر من تقاليدته لأن الملوك كانوا يمزجون على قيد الحياة ، يحنون إلى القديم ، ويفخرون بأجدادهم ، ويطلبون إلى الشعراء تمجيدهم والتغنى ببطولاتهم ، ولكنه كشاعر عبقرى موهوب استطاع أن يبتكر ملحمتين مختلفتان عن الأناشيد والمقطوعات التي نظمها الشعراء السابقون لأنه أدخل عليهما تبديلاً جوهرياً

(١) إن الفقرات الخاصة بملكية الأراضى لى هوميروس قليلة العدد اختلف في تفسيرها القاد لذا لا يجوز أن نستنتج منها قاعدة عامة أو نظاماً ثابتاً . انظر :

Keller : Homeric Society, quoted by Lang (A), Homer & His Age, London, 1906, p. 240.

(٢) أمثلة ذلك كثيرة : حب اندروماخا لهكتور ، حب نيلوبا لأودوسيوس ، حب برياموس لزوجته وأبنائه .

(٣) الأوديسا : ١٧ : ٣٢٢ .. يلاحظ أن العبيد عند هوميروس يعاملون معاملة حسنة ولا يقومون إلا بالخدمة في المنازل أو العمل في الحقول .

في الموضوع ، فربط الماضي بالحاضر ، ومجد أسلافه من الأبطال واهتم
بمعاصريه ، وصور أحوالهم ، وبذلك كتب لأشعاره الخلود فأصبحت تتلى
في كل زمان ومكان .

ولكن قوة الموضوع وسمو الأفكار لا تكفي لتخليد العمل الأدبي ودليل
على ذلك أن جميع الملاحم اليونانية^(١) التي نظمت عن حرب طرواده أو عن
عودة أوديسيوس أندثرت ورميت بالضعف والركاكة لأنها لا تشبه أشعار
هوميروس في شيء مطلقا .

أما الإلياذة والأوديسا، بعكس هذه الملاحم، فتصفان بوضوح الأسلوب
الذي امتدحه علماء البلاغة والنقاد القدماء واعتبروه أول سبب لتفوق
هوميروس الأدبي، فهو في رأيهم أعظم كتاب اليونان لأنه أوضحهم أسلوبا ،
ويعزى وضوحه إلى عنايته بترتيب الأفكار ونقاء التعبير (katharotes)
واختيار أسهل الألفاظ وأدقها (eukrineia) وأكثرها انتشارا وأحسنها
وقعا على النفس وأغلبها نغما في الأذن^(٢) ، ومع أن الوضوح في رأى بعض
النقاد قد يبعث الملل أو يقلل من أهمية الموضوع أو يؤدي إلى سطحية الفكرة
لأنه يفرض على المؤلف اتباع طريقة واحدة ويضطره إلى السير على نسق
معين ، إلا أن شاعرنا استطاع ، بفضل عبقرية ، تجنب هذه العيوب بأن
توع في أسلوبه : فكان مرة يركن إلى الإيجاز في الشرح ويختصر في التفاصيل
(suntemnei) ، يستبعد كل كلمة زائدة ويتخلص من كل صفة غير لازمة

(١) انظر الفصل الأول ، ص ١٤

(٢) Eustathius quoted by Berard (V) : Introduction a l'Odys-
sée, Paris, 1933. T. II, p. 803.

فيصف في بيتين اثنتين^(١) استيقاظ أودومبيوس على شاطئ جزيرة الفياكيس حيث كانت تلهو ناوسيكاً مع وصيفاتها ، ويصور سقوط طروادة تصويراً رائعاً في أربعة سطور^(٢) ، ومرة يسهب في الوصف ويبلغ حد الكمال لأنه في ، رأى يوستاثيوس ، لا يترك كبيرة ولا صغيرة إلا ذكرها ليطلع السامع على كل شيء . فإذا سرد قصة حلل وقائعها ، وإذا تعرض لأسطورة شرح أجزائها « وكان هوميروس بارعاً في تفصيل أى موضوع بأسلوب متنوع يجمع بين البساطة والنفخامة وبين الدقة والسمو وبين القوه والسهولة^(٣) » ، وكان لا يهتم بالزخرف اللغوى ولا يميل إلى المحسنات اللفظية ، بل كان يعتمد في تشويق سامعيه على روعة الحوادث التى يعرضها ، والأحاديث التى يرويها ، والخطب الذى يتخذ منها وسيلة للاقناع وإثارة الهمم ؛ فيستخدمها القوادح الجنود فى ساحة القتال^(٤) ويبلغأ اليها الزعماء لمناقشة المسائل السيامية^(٥) ويستعين بها الرسل فى أداء مهمتهم ، وكانت تتميز الخطب عنده بأنها تعبر تعبيراً صادقاً عن نفسية الخطيب وتكشف عن طويته ، تستمد قوتها من قوة شخصيته وصدق مشاعره ، وتكتسب حيويتها من عمق افكاره وتاجع عواطفه ، وكان هوميروس يحب التكرار ويعتمد عليه فى الاستيلاء على انتباه ذلك الجمهور الساذج الذى كان يستحيل عليه تتبع الشاعر واستيعاب ما ينشده إذا لم يروح عنه ، ولا شك أنه كان يفهم نفسية سامعيه ويعرف أنهم

(١) الأوديسا : ٦ : ١١٦ — ١١٧ .

(٢) الأوديسا : ٨ : ٥١٧ — ٥٢٠ .

(٣) Berard (V) : op. cit., p. 307; cf. Quintilianus, Institutio Oratoria, Book X. I. 46—51.

(٤) الإلياذة : ٢ : ٢١١ — ٢٩٣ ، ٦ : ٠٦ — ٦٦٨ .

(٥) الإلياذة : ١ : ٧ : ٣٠٧ .

(٦) الإلياذة : ٩ : ٢٢٥ — ٤٣١ ، ٤ : ٤٣٢ — ٦٠٥ .

لا يحبون العجلة لأن لديهم من الوقت ما يتسع لسماع مئات من الآيات لذا لم يتردد في تكرار سطور وعبارات بل وفقرات بأكملها ، ولقد بلغ مجموع الآيات المكررة من الإلياذة والأوديسا ثلث طولها (١) ، ومع ذلك فانا لم نسمع عن ناقد قديم أو حديث ضاق بهذا التكرار ، بل لقد اعتبره أرسطو ظاهرة طبيعية لم تفقد الأسلوب شيئا من جماله ولم تبعث الملل لأن الشاعر كان بارعا في تهية النفوس وتمهيد الجو لسماع كل ما يردد من جديد . فعندما يصف استعداد باريس لحمل أسلحته وخوض المعركة (٢) لا يتردد في استخدام نفس العبارات لتصوير هكتور وهو يتأهب للقتال (٣) . ولكن التكرار لا يمنعنا من إدراك الفرق العظيم بين روح الفقرتين لأن الشاعر سردهما بطريقة بارعة تشعرنا بأن باريس يخالف طبيعته الناعمة ويستعد للنزال غير راغب فيه لأنه لم يخلق له ، بعكس هكتور الذي يدخل المعركة ليدافع عن طرواده ويحمي شعبها .

ولقد أكثر هوميروس أيضا من استخدام التشبيهات (٤) ، فاستمدها من الطبيعة التي تحيط به ومن البيئة التي يعيش فيها . فالسيل الجارف والعاصفة الشديدة والبرق الخاطف والريح العاتية والأسد المرعب والثور الضخم وجموع النحل توحى إليه كلها بمقارنات بدیعة وتشبيهات حيه . فهكتور يقذف بنفسه الى المعركة كعاصفة قوية تهب على السحب فتعيث بها وتفرق شملها وتدفعها دفعا عنيفا إلى أبعد مكان ، واودوسيوس يهاجم

(١) تتكون الملحمتان من ٢٧٨٥٣ منها ٩٢٥٣ بيتا مكررا .

(٢) الإلياذة ٦ : ٥٠٦ - ٥١١ .

(٣) الإلياذة ٨ : ٢٦٣ - ٢٦٨ .

(٤) خاصة في الإلياذة التي تحتوى على ١٨٠ بيتا بينما لا تحتوى الأوديسا إلا على أربعين .

الأدعياء ويخيفهم كخنزير برى يروع الصيادين الذين يطاردونه ويخيف الكلاب التي تطارده ، وأجاكس العنيد يشبه الحمار الذي يعيث فساداً في حقل من القمح فيكون نصيبه الضرب المبرح .

ولكن الإلياذة والأوديسا تمتازان أولاً وقبل كل شيء بدقة الوصف وبراعة التصوير ، فما من نشيد فيهما إلا وقد احتوى على مقطوعات تصف الطبيعة أو لوحات فنية تصور مناظرها أو أوصاف مفصلة لبعض الأدوات الحربية ، برع الشاعر في رسمها وتحليلها تحليلاً دقيقاً حتى إن بعضها صار مضرب الأمثال ، فلا يتكلم ناقد عن دقة الوصف البالغة إلا وذكر « درع اخيلوس »^(١) الذي صنعه إله الحدادة ، والآله طبعاً لا تصنع دروعاً مثل تلك التي يصنعها الناس لذا ترك الشاعر لخياله العنان ليصف ذلك الدرع ، فقال : « صنع هيفايستوس درعاً كبيراً وزينه في كل أجزائه وأحاطه بإطار ثلاثي براق ، ومنطقة فضيه ناصعة البياض ، وكان للدرع خمسة أربطة وعليه من الرسوم ما يشهد بمهارة صانعة . صور عليه الأرض والبحر والسماء والكواكب التي تزنيها ، وبينها شمس لا تفتقر وقر شاحب الوجه . وصور عليه مدينتين جميلتين اقيمت في إحداهما الولايم والأفراح ، نرى سكانها يحملون العرائس من بيوتهن ويطوفون بهن في شوارع المدينة ، بينما كانت تتردد في الفضاء أناشيد الزفاف وانغام الموسيقى ، ووقفت النسوة معجبات ، واحتشد الناس في سوق المدينة .

أما المدينة الأخرى فقد عسكر حولها جيشان ، اختلف جنودها

(١) أوردنا تلخيصاً لوصف هذا الدرع لأن الشاعر صور عليه كثيراً من مظاهر الحياة اليونانية بعد أن ضمنها بعض خصائص الحياة المصرية والآشورية والفينيقية ، انظر في هذا الصدد

Murray (A) : History of Greek Sculpture, ch, III, p. 44, quoted by Jebb, op. cit., p. 67.

في الرأي بعضهم ينادى بتدمير المدينة عن آخرها ويرى الآخرون الاكتفاء بغزوها والاستيلاء على ما بها ، أما السكان المحاصرون فرفضوا التسليم واخذوا يتسلحون سراً ، بينما وقف الشيوخ والاطفال والنساء على اسوار المدينة يحرسونها . ثم خرج المحاربون يتقدمهم آريس واثينا ، كلاهما جميل طويل القامة ، أرتدى ثيابه المذهبة وحمل اسلحته اللامعه . وعندما بلغوا المكان المعد لكمين عند مجرى نهر ترتوى منه الماشيه ، جلسوا هناك يحوطهم هذا البرنز الراق ، وعلى بعد منهم وقف كشافان للجيش يراقبان مجيء الأبقار والثيران ذات القرون الملتويه . وإذا بقطيع من الماشية يسير وراءه راعيان يعزفان على المزمار ، وبينما يسريان عن انفسهما هجم عليهما العدو الذي كان يرقبهما وأخذ يحصد قطعان البقر ويحز أصواف الخراف ويذبح الراعيين ايضاً . وعندما سمع أهل المدينة المحاصرة صخب القطيع نهضوا وامتطوا جيادهم الرائعه واسرعوا نحو ذلك المكان . وهناك على ضفاف النهر نشبت معركة حامية استعمل فيها الفريقان حرابا برنزيه .

وصور عليه مزرعة جميلة خصبة تجود بثلاث غلات ، امتلأت بمحاريث تدفعها العمال ذهابا وإيابا ، وكلما انتهى بهم الطواف إلى حافة المزرعة قدمت لهم كئوس من الخمر لها حلاوة الشهد وظلوا في غدو ورواح يريدون الانتهاء من تخطيط هذا الحقل الخصيب الذي بدا ، بعد حرثه ، اسود قائما مع أنه مصنوع من الذهب .

وصور عليه ضيعة مترامية الاطراف حيث يحصد الفلاحون القمح بمنجل حاد فتسقط الحزم على الأرض سراعاً على خطوط المحراث ويقوم بربطها جماعة آخرون ، ويجرى خلفهم صبية يجمعون مايقع من القمح ويحملونه ويعطونه لهم ، وقد وقف بينهم الملك ، هادئاً يمك بصولجانه

والبشرو الحبور يملآن قلبه . وعلى مقربة منه أخذ الخدم يعدون الموائد
تحت شجرة بلوط ، فذبجوا ثورا سمينا وانهمكوا في تهيئته ، بينما راحت
النساء تنثر دقيق الشعير الايض وتعد عشاء الحاصدين .

« وصور عليه كذلك بستانا مليئا بالكروم الذهبية الناضرة تحملها جفان
تتكى على مساميك من الفضة ، وأحاط البستان بخندق في لون الفيروز وسور
من القصدير ، وشق طريقاً يؤدي إليه ، يسير فيه هؤلاء الذين يقطفون
الأعناب ، وترى العذارى والشباب يمرحون هناك ويحملون فاكهة حلوة
في سلال مجدولة وبينهم صبي يعزف على الربابة أعذب الأنغام ويعنى بصوته
العذب نشيد « لينوس » . (١)

« وصور عليه قطيعا من الأبقار ذات القرون المستقيمة مصنوعة
من الذهب والقصدير ، تسمع خوارها وهي تخرج من حظائرها إلى
المرعى بجوار نهر جار يتدفق بالقرب من البوص الغض ، وقد سار
وراء القطيع أربعة من الرعاة يتبعهم تسعة من الكلاب بيض الأقدام ،
وقد هجم على القطيع سبعان مخيفان أمسكا بثور ضخم وسجباه وهو يخور
بصوت عال ، وتبعتهما الكلاب وجماعة من الفلاحين ، ولكنهما مزقا
جسد الثور وأخذتا يلتهمان احشاه في نهم ويلعقان دماه بشراهة ، بينما
حاول الرعاة دون جدوى إثارة الكلاب لكي تجرى نحو السبعين لتعضهما ،
لكن الكلاب جرت نحوهما ثم ولت هاربة ، وصور عليه مرعى في واد
جميل ترعى فيه خراف بيضاء بجوار الحظائر والأكواخ والأخصاص .
وصور عليه حفلا راقصا مثل الحفل الذي أقامه دايدالوس ، من أجل

(١) نشيد حزين كان يتغنى به اليونان أيام الحصاد تمجيداً لذكرى لينوس الذي مات في
ربيعان الشباب .

« اريادنا ، ذات الغدائر الجميلة . وكان يرقص فيها شبان وعذارى ، أمسك بعضهم بعضا ، وكانت ترتدى العذارى ثيابا من الكتان الجميل ، بينما لبس الفتيان ثيابا من نسج ذى بريق زيتى خافت ، وكانت الفتيات تضع فوق رؤسهن أكاليل رائحة ، أما الرجال فتدلت على جوانبهم السيوف الذهبية ذات الشرائط الفضية ، وكانوا أحيانا يدورون على أطراف أقدامهم ، وأحيانا يتقدمون ، كل نحو الآخر ، فى صفوف منظمة ، وكان هناك حشد عظيم يحيط بهؤلاء الراقصين الذين بتوسطهم منشد يعزف على القيثارة واثنان يدوران بين الجميع يوفقان بين توقيع الرقص وأنغام المنشد ،

ولكن هو ميروس لم يبرع فى تصوير الدروع وحدها بل أظهر مقدرة فائقة فى وصف كل ما رأى وسمع . لقد كان قوى الملاحظة محبا للإستطلاع ، فوصف الجروح وآلامها وطريقة معالجتها ، وتكلم عن المعارك الحربية وقيادة الجيوش (١) وصور الحدائق والبساتين ، تحدث عن كل ذلك (٢) حديث خبير ماهر ووصفه وصف عالم دقيق حتى قال بعض النقاد (٣) إنه كان جراحا وقال آخرون إنه كان قائداً وقال غيرهم إنه كان فنانا أو عالما ولكنه كان فى الواقع جراحاً وقائداً وفناناً وعالماً لأنه كان شاعراً وينطق عن موهبة قدسية أتته من لدن الآلهة ، (٤)

(١) كسينفون ، المأدبة : ٤ ، ٦ : حيث يقول «يجب على كل فرد أن يرجع الى هو ميروس ليتعلم منه كيف تكون الزعامة السياسية والقيادة الحربية والبطولة فى القتال» .

(٢) انظر الإلياذة : ١١ : ٦٣٩ وما بعده ؛ ١٢ : ٢٠٠ - ٢٠٧ ؛ ٢٤ : ٨٠ - ٨٤ ؛ الأوديسا : ١٥ : ٢٢٥ وما بعده .

(٣) أفلاطون : إيون أو عن الإلياذة : ترجمة صقر خفاجه وسهير الفلماوى : ١٥٣٥ ، ٥٣٧ وما بعده .

(٤) أفلاطون : إيون . ١٥٣٥ .